الفصل الثانى

الروح والنفس عند ابن حزم الظاهرى

نبذة عن ابن حزم[1]:

هو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ (٩٩٤ميلادية) وكان أبوه وزيرًا للحاجب المنصور، فنشأ فى قصور الأمراء وتربى على موائد الوزراء وفتح عينيه على كبار علماء الفكر والأدب فى الأندلس، وصار من أهل العلم والأدب والخير، واختير لمنصب الوزارة فى أيام ابن أبى عامر. وكان لسقوط الدولة العامرية أثره على أسرته وعلى جاهها ومجدها، فتقلبت به الأحوال وتنقل بين مدائن الأندلس حتى تمكن من العودة إلى مسقط رأسه فى ١٠١٨م حيث وزر لعبد الرحمن الخامس لعدة أسابيع فى أواخر عام ١٠٢٣م.

وكان ابن حزم فى أول أمره شافعى المذهب، ولكنه أصبح من الظاهرية وشارك الظاهرية فى مواقفهم ضد السادة الأشعرية وضد السادة الصوفية، قال فى كتاب (الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل)[2]:

((زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل وأنها تسمع وترى. وهذه دعوى بلا برهان وصحة الحكم: أن النجوم لا تعقل أصلًا وأن حركتها على رتبة واحدة لا تتبدل عنها وهذه صفة الجماد المدبر الذى لا اختيار له. وليس للنجوم تأثير فى أعمالنا ولا لها عقل تدبرنا به... كما أنها لا تدل على الحوادث المقبلة)).

واهتم فى النصف الثانى من حياته بوضع عدد ضخم من المؤلفات التاريخية والفقهية تحتل مكانا مهمًّا فى كل مجال من مجالات العلم والمعرفة. وكان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم أهل الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه فى علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة و الشعر والمعرفة بالسير والأخبار كما قال عنه ابن بشكوال[3].

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان لابن خلكان، ٣/ ١٤.

(٢) الجزء الخامس، الصفحات ٢٦ – ٢٨.

(٣) الصلة، ١/ ٢٥٣.

يقول ابن حزم تحت عنوان (مستقر الأرواح)[1] :

اختلفت الناس فى مستقر الأرواح فذهب قوم من الروافض[2] إلى أن أرواح الكفار ببرهوت، وهو بئر بحضرموت[3]، وأن أرواح المؤمنين بموضع آخر أظنه الجابية... وهذا قول فاسد؛ لأنه لا دليل عليه أصلًا، وما لا دليل عليه فهو ساقط، ولا يعجز أحد عن أن يدعى للأرواح مكانًا آخر غير ما ادعاه هؤلاء، وما كان هكذا فلا يدين به إلا مخذول، وبالله تعالى التوفيق.

وذهب عوام أصحاب الحديث إلى أن الأرواح على أفنية قبورها – وهذا قول لا حجة له أصلًا تصححه إلا خبر ضعيف لا يحتج بمثله؛ لأنه فى غاية السقوط لا يشتغل به أحد من علماء الحديث، وما كان هكذا فهو ساقط أيضًا، وذهب أبو الهذيل العلاف[4] والأشعرية إلى أن الأرواح أعراض تفنى ولا تبقى وقتين فإذا مات الميت فلا روح هنالك أصلًا.

ومن عجائب أصحاب هذه المقالة الفاسدة قولهم: إن روح الإنسان الآن غير روحه قبل ذلك، أنه لا ينفك تحدث له روح ثم تفنى، ثم روح ثم تفنى، ثم روح ثم تفنى، وهكذا أبدًا، وأن الإنسان يبدل ألف ألف روح وأكثر فى مقدار أقل من ساعة زمانية، وهكذا يشبه تخليط من هاج به البرسام[5].

وزاد بعضهم فقال: إن صحت الآثار فى عذاب الأرواح فإن الحياة ترد إلى أقل جزء لا يتجزأ من الجسم فهو يعذب، وهذا أيضًا حمق آخر، ودعاوى فى غاية الفساد. وبلغنى عن بعضهم أنه يزعم أن الحياة ترد إلى عجب الذَنَبِ فهو يعذب أو ينعم، وتعلق بالحديث الثابت عن رسول

---

(١) ابن حزم، الفصل فى الملل والنحل، ج٤ ص١٢١ – ١٢٦ بيروت ١٩٨٥.

(٢) راجع كلامه عن الروافض: نفس المرجع السابق.

(٣) حضرموت: بالفتح ثم السكون وفتح الراء والميم اسمان مركبان واسمها فى التوراة حاضر ميت، وقيل: سميت بحضرموت عمرو بن قيس بن معاوية، وقيل: حضرموت اسمه عامر بن قحطان وإنما سمى حضرموت، لأنه كان إذا حضر حرثا أكثر فيها من القتل فلقب بذلك، وحضرموت ناحية واسعة فى شرق عدن بقرب البحر وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف وبها قبر هود عليه السلام وبقربها بئر برهوت، وبين حضرموت وصنعاء اثنان وسبعون فرسخًا، وأهلها دخلوا فى طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام، وقدم عليه الأشعث بن قيس فى بضعة عشر راكبًا مسلمًا فأكرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم.. إلخ (راجع ترجمة وافية لها فى معجم البلدان ج٢ ص(٢٦٩ – ٢٧١).

(٤) راجع ترجمته: نفس المرجع، الجزء الثالث ص٣٤.

(٥) البرسام: بالكسر علة معروفة، وفى التهذيب بالفتح، قال ابن السكيت هو الإبريسم.

الله صلى الله عليه وسلم: ((كل ابن آدم يأكله التراب، إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يركب))[1].

وهذا الخبر صحيح إلا أنه لا حجة فيه ليس فيه أن عجب الذنب يحيا ولا أنه يركب فى حياة، ولا أنه يعذب ولا ينعم وهذا كله مقحم فى كلام النبى عليه الصلاة والسلام.

وإنما الحديث عن عجب الذنب خلاصته لا يأكله التراب، فلا يحول ترابا وأنه منه ابتداء خلق المرء ومنه يبتدأ إنشاؤه ثانية فقط، وهذا خارج أحسن خروج على ظاهره، وأن عجب الذنب خاصة لا تتبدد أجزاؤه، وهى عظام تحسها لا تحول ترابا، وأن الله تعالى يبتدئ الإنشاء الثانى يجمعها ثم يركب الإنسان عليه، وأنه أول ما خلق من جسم الإنسان، ثم ركب عليه سائره.

وإذ هذا ممكن لو لم يأت به نص فخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق بالتصديق من كل خبر، لأنه عن الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ (النجم: ٣٢)، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ (الكهف: ١٨). وقال أبو بكر بن كيسان الأصم: لا أدرى ما الروح ولم يثبت شىء غير الجسد.

والذى نقول به فى مستقر الأرواح هو ما قاله الله تعالى ونبيه عليه الصلاة والسلام، لا نتعداه فهو البرهان الواضح، وهو أن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ (الأعراف: ١٧٢). وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ (الأعراف: ١١) فصح أن الله عز وجل خلق الأرواح جملة وهى الأنفس.

وكذلك أخبر عليه السلام: ((أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف))[2] وهى العاقلة الحساسة، وأخذ عز وجل عهدها وشهادتها وهى مخلوقة مصوَّرة عاقلة، قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم على جميعهم السلام، وقبل أن يدخلها فى الأجساد والأجساد يومئذ تراب وماء، ثم أقرها تعالى حيث شاء؛ لأن الله تعالى ذكر بلفظه ثم التى توجب

---

(١) الحديث رواه البخارى فى التفسير ٩٣، ورواه مسلم فى الفتن ١٤١، ١٤٣ وأبو داود سنة ٢٢ وابن ماجه فى الزهد ٣٢ والموطأ فى الجنائز ٤٩ وأحمد بن حنبل ج٢ ص٣٢٢، ٤٢٨.

(٢) الحديث رواه البخارى فى الأنبياء ٣، ورواه مسلم فى البر ١٥٩، وأبو داود فى الأدب ٦١، وأحمد ابن حنبل ج٢ ص٢٥٧، ٢٩٥.

التعقيب، والمهلة، ثم أقرها عز وجل حيث شاء وهو البرزخ الذى ترجع إليه من الموت لا تزال يبعث منها الجملة بعد الجملة فينفخها فى الأجساد المتولدة من المنى المنحدر من أصلاب الرجال، وأرحام النساء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ (القيامة: ٣٧).

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ (المؤمنون: ١٣).

وكذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه (يجمع ابن آدم فى بطن أمه أربعين يومًا ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح)[١].

وهذا نص قولنا – والحمد لله، فيبلوهم الله عز وجل فى الدنيا كما شاء ثم يتوفاها فترجع إلى البرزخ الذى رآها فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به عند سماء الدنيا، أرواح أهل السعادة عن يمين آدم عليه الصلاة والسلام، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره عليه السلام، وذلك عند منقطع العناصر وتعجل أرواح الأنبياء عليهم السلام وأرواح الشهداء إلى الجنة.

وقد ذكر محمد بن نصر المروزى[٢] عن إسحاق بن راهويه[٣] أنه ذكر هذا القول الذى قلنا بعينه وقال: على هذا أجمع أهل العلم. وهذا قول جميع أهل الإسلام حتى خالف من ذكرنا، وهذا هو قول الله عز وجل: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ (الواقعة: ٩: ١٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ

---

(١) الحديث رواه البخارى فى بدء الخلق ٦، والأنبياء١، والتوحيد ٢٨، ورواه مسلم فى القدر١، وأبو داود فى السنة ٦، والترمذى فى القدر ٤، وابن ماجه فى المقدمة ١٠، ولفظه عند ابن ماجه: (يجمع خلق أحدكم فى بطن أمه أربعين يومًا ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقول اكتب عمله وأجله ورزقه وشقى أم سعيد...) إلخ.

(٢) محمد بن نصر المروزى أبو عبد الله، إمام فى الفقه والحديث، كان من أعلام الناس باختلاف الصحابة فمن بعدهم فى الأحكام ولد ببغداد ونشأ بنيسابور، واستوطن سمرقند، وتوفى بها سنة ٢٩٤، له كتب منها القيامة، والمسند فى الحديث، واختصر المقريزى ثلاثة من كتبه طبعت فى جزء واحد وهى قيام الليل، وقيام رمضان، الوتر (تذكرة الحفاظ ج٢ ص٢٠١).

(٣) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلى أبو يعقوب بن راهويه من سكان مرو وهو أحد كبار الحفاظ، طاف البلاد لجمع الحديث وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم، كان ثقة فى الحديث له تصانيف منه المسند، استوطن نيسابور وتوفى بها سنة ٢٢٨). (تهذيب التهذيب ج١ ص٢١٦).

﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ (الواقعة: ٩٣).

ولا تزال الأرواح هنالك حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها فى أجسادها، ثم يرجعونها إلى البرزخ المذكور فتقوم الساعة، ويعيد الله عزوجل الأرواح ثانية إلى الأجساد، وهى الحياة الثانية، ويحاسب الخلق، وفريق فى الجنة، وفريق فى السعير، مخلدين أبدًا.

وقال الأشعرية: معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى العهد المأخوذ فى قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ١٧٢). أن (إذ) هاهنا بمعنى إذا فقول فى غاية السقوط، لوجوهٍ خمسة:

أولها: أنه دعوى بلا دليل.

والثانى: أن إذ بمعنى إذا لا يعرف فى اللغة.

وثالثها: أنه لو صح له تأويله هذا الفاسد ولا يصح لكان كلامًا لا يعقل ولا يفهم، وإنما أورده عز وجل حجة، ولا يحتج الله عز وجل إلا بما نفهم لا بما لا نفهم؛ لأن الله تعالى قد تفضل علينا بإسقاط الإصر عنا، ولا إصر أعظم من تكليفنا فهم ما ليس فى بنيتنا فهمه.

ورابعها: أنه لو كان كما ادعى لما كان على ظهر الأرض إلا مؤمن.

والعيان يبطل هذا؛ لأننا نشاهد كثيرًا من الناس لم يقولوا قط ربنا الله ممن نشأ على الكفر، وولد عليه إلى أن مات، وممن يقول بأن العالم لم يزل ولا محدث له، من الأوائل والمتأخرين.

وخامسها: أن الله عز وجل إنما أخبر بهذه الآية عما فعل ودلنا على أن الذكر يعود بعد فراق الروح للجسد، كما كان حلوله فيه؛ لأنه تعالى أخبرنا أنه أقام علينا الحجة والإشهاد دليلا، كراهية أن تقوم يوم القيامة إن كنا عن هذا غافلين.

أى عن ذلك الإشهار المذكور، فصح أن ذلك الإشهاد كان قبل هذه الدار التى نحن فيها التى أخبرنا الله عز وجل فيها بذلك الخبر، وقبل يوم القيامة أيضًا فبطل بذلك قول بعض الأشعرية وغيرها، وصح أن قولنا هو نص الآية والحمد لله رب العالمين، وإنما أتى المخالفون منهم أنهم عقدوا على أقوال ثم راموا رد كلام الله تعالى، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم إليها، وهذا هو الباطل الذى لا يحل، ونحن ولله الحمد إنما أتينا إلى ما قاله عز وجل وما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم، فقلنا به، ولم نحكم فى ذلك بطرًا ولا هوى، ولا رددناهما إلى قول أحد، بل رددنا جميع الأقوال إلى نصوص القرآن والسنن. والحمد لله رب العالمين كثيرًا، وهذا هو الحق الذى لا يحل تعديه.

وأما أرواح الأنبياء عليهم السلام فهم الذين ذكر الله تعالى أنهم المقربون، فى جنات النعيم وأنهم غير أصحاب اليمين، وكذلك أخبر عليه السلام أنه رآهم فى السماوات ليلة أسرى به فى سماء سماء، وكذلك الشهداء أيضًا هم فى الجنة لقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ (البقرة: ١٥٤) وقال: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩). وهذا الرزق للأرواح بلا شك لا يكون إلا فى الجنة.

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديث الذى روى: ((نسمة المؤمن طائر يعلق من ثمار الجنة ثم تأوى إلى قناديل تحت العرش))[1] وروينا هذا الحديث مبينًا من طريق ابن مسعود رضى الله عنه وأنهم الشهداء وبهذا تتألف الأحاديث والآيات – والحمد لله رب العالمين.

فإن قال قائل: كيف تخرج الأنبياء عليهم السلام والشهداء من الجنة إلى حضور الموقف يوم القيامة؟

قيل له وبالله التوفيق: لسنا ننكر شهادة القرآن والحديث الصحيح بدخول الجنة، والخروج عنها، قبل يوم القيامة، فقد خلق الله عز وجل فيها آدم عليه السلام، وحواء ثم أخرجهما منها إلى الدنيا، والملائكة فى الجنة، ويخرجون منها برسالات رب العالمين إلى الرسل والأنبياء إلى الدنيا، وكل ما جاء به نص قرآن أو سنة فلا ينكره إلا جاهل أو مغفل أو ردى الدين، وأما الذى ينكر ولا يجوز أن يكون البتة فخروج روح من دخل الجنة إلى النار، فالمنع من هذا إجماع من جميع الأمة، متيقن مقطوع به، وكذلك من دخلها يوم القيامة جزاء أو تفضلًا من الله عز وجل، فلا سبيل إلى خروجه منها أبدًا بالنص، وبالله تعالى التوفيق.

النفس

اختلف الناس فى النفس فذكر عن أبى بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم إنكار النفس جملة. وقال: لا أعرف إلا ما شهدته بحواسى، وقال جالينوس وأبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف: النفس عرض من الأعراض ثم اختلفا فقال جالينوس: هى مزاج مجتمع يتولد من تركيب أخلاط الجنس، وقال أبو الهذيل: هى عرض كسائر أعراض الجسم، وقالت طائفة: النفس هى النسيم الداخل بالتنفس فهى النفس، قالوا والروح عرض وهو الحياة فقط فهو النفس، وهذا قول الباقلانى ومن اتبعه من الأشعرية.

---

(١) الحديث رواه النسائى فى الجنائز ١١٧، وابن ماجه فى الزهد ٢٢، والموطأ فى الجنائز ٤٩، وأحمد ابن حنبل ج٢ ص٤٥٥، ٤٥٦.

وقالت طائفة: النفس جوهر ليست جسمًا ولا عرضًا ولا لها طول ولا عرض ولا عمق ولا هى فى مكان ولا تتجزأ، وأنها هى الفعالة المدبرة وهى الإنسان، وهو قول بعض الأوائل وبه يقول معمر بن عمر العطار أحد شيوخ المعتزلة وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرة بالمعاد إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكانة عاقلة مميزة مصرفة للجسد. وبهذا نقول والنفس والروح اسمان مترادفان لمسمى واحد ومعناهما واحد.

وأما قول أبى بكر بن كيسان؛ فإنه يبطله النص وبرهان العقل، أما النص فقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ الآية (الأنعام: ٩٣).

فصح أن النفس موجودة وأنها غير الجسد، وأنها الخارج عند الموت.

وأما البرهان العقلى فإنا نرى المرء إذا أراد تصفية عقله وتصحيح رأيه أو فك مسألة عويصة عكس ذهنه وأغرب نفسه عن حواسها الجسدية وترك استعمال الجسد فقط جملة وتبرأ منه حتى إنه لا يرى من بحضرته ولا يسمع ما يُقال أمامه فحينئذ يكون رأيه وفكره أصفى ما كان.

فصح أن الفكر والذكر ليسا للجسد المتخلَّى منه عند إرادتها، وأيضًا فالذى يراه النائم مما يخرج حقًّا على وجهه، وليس ذلك إلا إذا تخلت النفس عن الجسد فبقى الجسد كجسد الميت ونجده حينئذ يرى فى الرؤيا ويسمع ويتكلم ويذكر، وقد بطل عمل بصره الجسدى وعمل أذنيه الجسدية، وعمل ذوقه الجسد وكلام لسانه الجسدى.

فصح يقينًا أن العقل المبصر السامع المتكلم الحساس الذائق هو شىء غير الجسد.

فصح أنه المسمى نفسًا إذ لا شىء غير ذلك، وكذلك ما تتخيله نفس الأعمى الغائب عن الشىء مما قد رآه قبل ذلك فيتمثله ويراه فى نفسه كما هو.

فصح يقينًا أن هاهنا متمثلًا مدركًا غير الجسد إذ لا أثر للجسد ولا للحواس فى شىء مما ذكرنا البتة. ومنها أنك ترى المريد يريد بعض الأمور بنشاط، فإذا اعترضه عارض ما كسل والجسم بحسبه كما كان لم يتغير منه شىء فعلمنا أن هاهنا مريدًا للأشياء غير الجسد ومنها أخلاق النفس من الحلم والصبر والحسد والعقل والطيش والخرفة والنَّزق والعلم والبلادة وكل هذا ليس لشىء من أعضاء الجسد فإذا لا شك فى ذلك، فإنما هو كله للنفس المدبرة للجسد، ومنها ما يرى من بعض المتحضرين ممن قد ضعف جسده، وفسدت بنيته وتراه حينئذ أحدَّ ما كان ذهنًا وأصحَّ ما كان تمييزًا، وأفضل طبيعة وأبعد عن كل لغو وألصق بكل حكمة، وأصبحهم نظرًا وجسده حينئذ فى غاية الفساد وبطلان القوى.

فصح أن المدرك للأمور المدبر للجسد الفعال المميز الحى هو شىء غير الجسد وهو الذى يسمى نفسًا وصح أن الجسد مؤدٍ للنفس، وأنها مذ حلت فى الجسد فكأنها وقعت فى طين غمر فأنساها شغلها بها كل ما سلف لها.

وأيضًا فلو الفعل للجسد لكان فعله متماديًا وحياته متصلة فى حال نومه وموته، ونحن نرى الجسد حينئذ صحيحًا سالمًا لم ينتقص منه شىء من أعضائه قد بطلت أفعاله كلها جملة.

فصح أن الفعل والتمييز إنما كان لغير الجسد وهو النفس المفارقة له، وأن الفعال الذاكر فر منه وتبرأ منه. وأيضًا فإننا نرى أعضاء الجسد تذهب عضوًا عضوًا بالقطع أو الفساد والقوى باقية بحسبها والأعضاء قد ذهبت وفسدت بالجذام وبالجدرى وبالقطع والجسد قد نقص وفسد لاقيه، ونجد الذهن والتدبير والعقل وقوى النفس باقية أوفر ما كانت.

فصح ضرورة أن الفعال العالم المدبر هو غير الجسد كما ذكرنا وأن الجسد موات، فبطل قول ابن كيسان والحمد لله رب العالمين.

وأما قول من قال: إنها مزاج كما قال جالينوس فإن كل ما ذكرنا، مما أبطلنا به قول أبى بكر ابن كيسان، فإنه يبطل أيضًا قول جالينوس.

وأيضًا فإن العناصر الأربعة التى منها تركب الجسد وهى التراب، والماء، والهواء، والنار، فإنها كلها موات بطبعها، ومن الباطل الممتنع والمحال، الذى لا يجوز البتة أن يجمع موات وموات، وموات وموات فيقوم منها حى.

وكذلك محال أن تجتمع فيقوم منها حار أو حوار فيجتمع منها بارد، أو حى وحى وحى فيقوم منها موات، فبطل أن تكون النفس مزاجًا، وبالله تعالى التوفيق.

وأما قول من قال: إنها عرض فقط، وقول من قال: إنما النفس النسيم الداخل والخارج من الهواء، وأن الروح هو عرض وهو الحياة، فإن قول هذين القولين يبطلان بكل كما ذكرنا فى إبطال قول الأصم بن كيسان، وأيضًا فإن أهل هذين القولين ينتمون إلى الإسلام، والقرآن يبطل قولهم نصًا، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الزمر: ٤٢).

فصح ضرورة أن الأنفس غير الأجساد، وأن الأنفس هى المتوفاة فى النوم والموت، ثم ترد عند اليقظة، وتمسك عند الموت، وليس هذا التوفى للأجساد أصلًا، وبيقين يدرى كل ذى حس سليم أن العرض لا يمكن أن يتوفى فيفارق الجسم الحامل له، ويبقى كذلك ثم يرد بعضه، ويمسك بعضه، هذا ما لا يكون ولا يجوز أن العرض يبطل بمزايلته الحامل له كذلك لا يمكن أن

يظن ذو مسكة من عقل أن الهواء الداخل هو المتوفى عند النوم، وكيف ذلك وهو باق فى حال النوم كما فى حال اليقظة ولا فرق..؟ وكذلك قول عز وجل: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ (الأنعام: ٩٣).

فإنه لا يمكن أن يعذب العرض ولا الهواء، وأيضًا فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

هذه آية ترفع الإشكال جملة، وتبين أن النفس غير الجسد، وإنما هى العاقلة المخاطبة المكلفة، لأنه لا يشك ذو حس سليم فى أن الأجساد حين أخذ الله عليها هذا العهد كانت مبددة فى التراب والماء والهواء والنار، ونص الآية يقتضى ما قلنا، فكيف وفيها نص أن الإشهاد إنما وقع على النفوس...؟ وما أدرى كيف ينشرح نفس مسلم بخلاف هذه النصوص، وكذلك إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أنه رأى عند سماء الدنيا ليلة أسرى به عن يمين آدم وعن يساره نسم بنيه فأهل السعادة عن يمينه، وأهل الشقاء عن يساره عليه السلام)) ومن الباطل أن تكون الأعراض باقية هنالك، وهو هواء متردد فى الهواء.

ولو كان ما قاله أبو الهذيل والباقلانى ومن اقتدى بهما حقًّا، لكان الإنسان يبدل فى كل ساعة ألف ألف روح وأزيد من ثلاثمائة نفس؛ لأن العرض عندهم لا يبقى وقتين بل يفنى ويتجدد عندهم أبدًا، فروح كل حىٍّ على قولهم فى كل وقت غير روحه التى كانت قبل ذلك، وهكذا تتبدل أرواح الناس عندهم بالخطاب، وكذلك بيقين يشاهد كل أحد أن الهواء الداخل بالتنفس ثم يخرج هو غير الهواء الداخل بالتنفس الثانى، فالإنسان يبدل على قول الأشعرية أنفسًا كثيرة فى كل وقت ونفسه الآن غير نفسه آنفًا، وهذا حمق لا خفاء به فبطل قول الفريقين بنص القرآن والسنة والإجماع والمشاهدة والمعقول، والحمد لله رب العالمين.

هذا مع تعريفهما من الدليل جملة، وأنها دعوى فقط وما كان هكذا فهو باطل، وقد صرح الباقلانى عند ذكره فى أرواح الشهداء وأرواح آل فرعون فقال: هذا يخرج على أحد وجهين بأن يوضع عرض الحياة فى أقل جزء من أجزاء الجسم، وقال بعض من شاهدناه منهم توضع الحياة فى عجب واحتج بالخبر عن النبى: ((كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب))[1].

وهذا تمويه من المحتج بهذا الخبر؛ لأنه ليس فى الحديث لا نص ولا دليل ولا إشارة، يمكن

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

أن يتأول على أن عجب الذنب يحيا، وإنما فى الحديث أن عجب الذنب لا يأكله التراب، وأنه من خلق الجسد وفيه يركب فقط، فظهر تمويه هذا القائل وضعفه، والحمد لله رب العالمين.

قال الباقلانى: وأما أن يخلق لتلك الحياة جسد آخر، فلا.

وهذا مذهب أهل التناسخ بلا مؤنة، واحتج لذلك بالحديث المأثور أن نسمة المؤمن طير يعلق من ثمار الجنة ويأوى إلى قناديل تحت العرش وفى بعضها أنها فى حواصل طير خضر.

ولا حجة له فى هذا الخبر؛ لأن معنى قوله عليه السلام طائر يعلق هو على ظاهره لا على ظن أهل الجهل، وإنما أخبر عليه السلام أن نسمة المؤمن طائر بمعنى أنها تطير فى الجنة فقط لا أنها تنسخ فيصوَّر لطير، فإن قيل إن النسمة مؤنثة قلنا قد صح عن عربى فصيح أنه قال أتتك كتابى فاستخففت بها، فقيل له: أتؤنث الكتاب؟ فقال: أو ليس صحيفة؟ وكذلك النسمة روح فتذكر لذلك، وأما الزيادة التى فيها أنها فى حواصل طير خضر، فإنها صفة تلك القناديل التى تأوى إليها، والحديثان معًا حديث واحد وخبر واحد.

ولم يحصل من هذين الوجهين الفاسدين إلا على دعوى كاذبة بلا دليل يشبه الهزل أو على كفر مجرد فى المصير، إلى قول أصحاب التناسخ، وعلى تحريف الحديث عن وجهه ونعوذ بالله من الخذلان.

فبطل هذان القولان والحمد لله رب العالمين. وأما قول من قال: إن النفس جوهر لا جسم من الأوائل، ومعمر وأصحابه، فإنهم موهوا بأشياء إقناعيات فوجب إيرادها، ونقضها ليظهر البرهان على وجه الإنصاف للخصم وبالله تعالى التوفيق.

قالوا: لو كانت النفس جسمًا لكان بين تحريك المحرك رجله وبين إرادته تحريكها زمان على قدر حركة الجسم وتنقله، إذ النفس هى المحركة للجسد والمريدة لحركته، قالوا فلو كان المحرك للرجل جسمًا لكان لا يخلو إما أن يكون حاصلًا فى هذه الأعضاء، وإما جاثيًا إليها، فإن كان جاثيًا إليها احتاج إلى مدة ولا بد، وإن كان حاصلا فيها فنحن إذا قطعنا تلك العصبة التى تكون لحكة لم يبق منها فى العضو الذى كان يتحرك شىء أصلًا، فلو كان المحرك حاصلًا فيه لبقى منه شىء فى ذلك العضو.

وهذا لا معنى؛ له لأن النفس لا تخلو من أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها: إما أن تكون متخللة لجميع الجسد من خارج كالثواب، وإما أن تكون متخللة لجميعه من داخل كالماء فى المدرة، وإما أن تكون فى مكان واحد من الجسد وهو القلب والدماغ، وتكون قواها منبثة فى جميع الجسد فأى هذه الوجوه كان فتحريكها لما يريد تحريكه من الجسد يكون إرادتها لذلك متلازمان كإدراك

البصر لما يلاقى الجسد فى البعد بلا زمان، وإذا قطعت العصبة لم ينقطع ما كان من جسم النفس متخللًا لذلك العضو إن كانت متخللة لجميع الجسد من داخل، أو متخللة له من خارج، بل تفارق العضو الذى يبطل حسه فى الوقت وينفصل عنه بلا زمان، وتكون مفارقتها لذلك العضو كمفارقة الهواء للإناء الذى ملئ ماءً، وأما إن كانت النفس ساكنة فى موضع واحد من الجسد فلا يلزم على هذا القسم أن يسلب من العضو المقطوع، بل يكون فعلها حينئذ فى تحريكها كفعل حجر المغناطيس فى الحديد، وإن لم يلصق به يتلازمان فبطل هذا الإلزام الفاسد، والحمد لله رب العالمين.

وقالوا لو كانت النفس جسمًا لوجب أن نعلم ببعضها أو بكلها.

وهذا سؤال فاسد بعينه والجواب وبالله تعالى التوفيق أنها لا تعلم إلا بكلها أو ببعضها؛ لأن كل بسيط غير مركب من طبائع شتى، فهو طبيعة واحدة وما كان طبيعة واحدة فقوته فى جميع أبعاضه، وفى بعض أبعاضه ساء كالنار تحرق بكلها وببعضها، ثم لا ندرى ما وجه هذا الاعتراض علينا بهذا السؤال، ولا ما وجه استدلالهم منه على أنها غير جسم ولو عكس عليهم فى إبطال دعواهم أنها جوهر لا جسم لما كان بينهم وبين السائل لهم بذلك فرق أصلًا.

وقالوا: إن من شأن الجسم أنك إذا زدت عليه جسمًا آخر زاد فى كميته وثقله، قالوا: فلو كانت النفس جسمًا ثم داخلت الجسم الظاهر لوجب أن يكون الجسد حينئذ أثقل منه دون النفس، ونحن نجد الجسد إذا فارقته النفس أثقل منه، إذا كانت النفس فيه.

هذا شغب فاسد ومقدمة باطلة كاذبة؛ لأنه ليس كل جسم كما ذكروه، من أنه إذا زيد عليه جسم آخر كان أثقل منه وحده، وإنما يعرض من هذا فى الأجسام الثقال التى تطلب المركز الوسط فقط، يعنى التى فى طبعها أن تتحرك سفلا، وترسب من المائيات والأرضيات، وأما التى تتحرك بطبعها علوًّا فلا يعرض ذلك له، بل الأمر بالضد وإذا أضيف جسم منها إلى جسم ثقيل خففه فإنك ترى إنك لو نفخت زقا من جلد ثور أو جلد بعير لو أمكن حتى يمتلئ هواء ثم وزنته فإنك لا تجد على وزنه زيادة على مقدار وزنه لو كان فارغًا أصلًا.

وكذلك ما صعد من الزقاقة ولو أنه ورقة سوسنة منفوخة، ونحن نجد الجسم العظيم الذى إذا أضفته إلى جسم ثقيل خففه جدًّا، فإن لو رميت الزق غير المنفوخ فى الماء لرسب فإذا نفخته ورميت به خف وعام، ولم يرسب ولذلك؛ يستعمله العائمون؛ لأنه يرفعهم عن الماء ويمنعهم من الرسوب، وهكذا النفس مع الجسد وهو باب واحد كله، لأن النفس جسم علول فلكى أخف من الهواء، وأطلب للعلو فهى تخفف الجسد إذا كانت فيه، فبطل تمويههم والحمد لله رب العالمين.

وهذا كله صحيح وقضايا صادقة، حاشا قضية واحدة، ليست فيها وهى قولهم وهى مدركة من الحواس أو من بعضها، فهذا هو الباطل المقحم بلا دليل، سائر ذلك صحيح، وهذه القضية الفاسدة دعوى كاذبة وقد تقدم أيضًا إفسادنا لها آنفا مع تعريها عن دليل يصححها، ونعم فالنفس جسم طويل عريض عميق، ذات سطح وخط وشكل ومساحة وكيفية، يحاط بها، ذات مكان وزمان؛ لأن هذه خواص الجسم ولا بد، والعجب من قلة حياء من أقحم من هذا ((فهى إذن مدركة بالحواس)) وهذا عين الباطل؛ لأن حاسة البصر وحاسة السمع وحاسة الذوق وحاسة الشم، وحاسة اللمس، لا يقع شيء منها لا على الطول ولا على العرض ولا على العمق، ولا على السطح ولا على الشكل، ولا على المساحة ولا على الكيفية، ولا على الخط، إنما تقع حاسة البصر على اللون فقط، فإن كان فى شيء مما ذكرنا لون وقعت عليه حينئذ حاسة البصر وعمت ذلك الملون بتوسط اللون وإلا فلا. وإنما تقع حاسة السمع على الصوت فإن حدث فى شيء مما ذكرنا صوت وقعت عليه حاسة السمع حينئذ، وعلمت ذلك الصوت يتوسط الصوت وإلا فلا.

وإنما تقع حاسة الشم على الرائحة، فإن كان فى شيء مما ذكرنا رائحة وقعت عليها حينئذ حاسة الشم، وعلمت حامل الرائحة حينئذ بتوسط الرائحة وإلا فلا، وإن كان لشيء مما ذكرنا طعم وقعت عليه حينئذ حاسة الذوق وعلمت المذوق بتوسط الطعم وإلا فلا، وإن كان فى شيء مما ذكرنا مجسة وقعت عليه حاسة اللمس حينئذ وعلمت الملموس حينئذ بتوسط المجسة وإلا فلا.

وقالوا: إن من خاصة الجسم أن يقبل التجزؤ، وإذا جزئ خرج منه الجزء الصغير والكبير، ولم يكن الجزء الصغير كالجزء الكبير، فلا يخلو حينئذ من أحد أمرين، إما أن يكون كل جزء منها نفسها فيلزم من ذلك ألا تكون لنفس نفسًا واحدة، بل تكون حينئذ أنفسًا كثيرة كركبة من أنفس، وإما ألا يكون كل جزء منها فيلزم ألا يكون كلها نفسًا.

وأما قولهم إن خاصة الجسم احتمال التجزؤ فهو صدق، والتنفس محتملة للتجزؤ؛ لأنها جسم من الأجسام، وأما قولهم: إن الجزء الصغير ليس كالكبير فإن كانوا يريدون فى المساحة فنعم، وأما فى غير ذلك فلا، وأما قولهم: إنها إن تجزأت فإما أن يكون كل جزء منها نفسًا وإلا لزمهم من ذلك إنها مركبة من أنفس، فإن القول صحيح فى هذا أن النفس محتملة الأجزاء بالقوة، وإن كان التجزؤ بانقسامها غير وجود بالفعل، وهكذا القول فى الفلك والكواكب، كل ذلك محتمل للتجزؤ بالقوة، وليس التجزؤ موجودًا فى شيء منه بالفعل.

وأما قولهم عنها مركبة من أنفس فشغب فاسد؛ لأننا قد قدمنا فى غير موضع أن المعانى المختلفة والمسميات المتغايرة يجب أن يوقع على كل واحد منها اسم يبين به عن غيره، وإلا فقد

وقع الإشكال وبطل التفاهم، وصرنا إلى قول السوفسطائية المبطلة لجميع الحقائق، ووجدنا العالم ينقسم قسمين.

أحدهما: مؤلف من طبائع مختلفة فاصطلحنا على تسمية هذا القسم مركبًا، والثانى: مؤلف من طبيعة واحدة، فاصطلحنا على تسمية هذا القسم بسيطًا ليقع التفاهم فى الفرق بين هذين القسمين، ووجدنا القسم الأول لا يقع على كل جزء من أجزائه اسم كله كالإنسان الجزئى فإنه متألف من أعضاء لا يسمى شىء منها إنسان كالعين والأنف واليد وسائر أعضائه التى لا يسمى عضو منها على انفراده إنسانًا، فإذا تألفت سمى المتألف منها إنسانًا.

ووجدنا القسم الثانى يقع على كل جزء من أجزائه اسم كله كالأرض والماء وكالهواء وكالنار وكالفلك، فكل جزء من النار نار، وكل جزء من الماء ماء، وكل جزء من الهواء هواء، وكل جزء من الفلك فلك، وكل جزء من النفس نفس، وليس ذلك موجبا أن تكون الأرض مؤلفة من أرضين ولا أن يكون الهواء مؤلفًا من أهوية، ولا أن يكون الفلك مؤلفًا من أفلاك، ولا أن تكون النفس مؤلفة من أنفس، وحتى لو قيل ذلك بمعنى أن كل بعض منها يسمى نفسًا، وكل بعض من الفلك يسمى فلكًا، فما كان يكون فى ذلك ما يعترض به على أنها جسم كسائر الأجسام التى ذكرنا، وبالله تعالى التوفيق.

وقالوا أيضًا: طبع ذات الجسم أن يكون غير متحرك والنفس متحركة، فإن كانت هذه الحركة التى فيها من قبل البارى تعالى فقد وجدنا لنا حركات فاسدة، فكيف يضاف ذلك إلى البارى تعالى الله وهذا كلام فى غاية الفساد والهجنة، ولقد كان ينبغى لمن ينتسب إلى العلم إن كان يدرى مقدار سقوط هذه الاعتراضات وسخفها أن يصون نفسه عن الاعتراض بها لإزالتها وإن كان لا يدرى لإزالتها فكان الأولى به أن يتعلم قبل أن يتكلم، فإما قوله إن طبع ذات الجسم أن تكون غير متحركة فقول ظاهر الكذب والمجاهرة؛ لأن الأفلاك والكواكب أجسام وطبعها الحركة الدائمة المتصلة أبدًا، إلى أن يحيلها خالقها عن ذلك يوم القيامة.

وأن للعناصر دون الفلك أجسامًا وطبعها الحركة إلى مقرها، والسكون فى مقرها، وأما النفس فلأنها حية كان طبعها السكون الاختيارى حينًا وحينًا، هذا كله لا يجهله أحد به ذوق.

وأما قولهم: إن لها حركات ردية فكيف تضاف إلى البارى تعالى..؟ فإنما كان بعض حركات النفس رديًّا لمخالفة النفس أمر باريها فى تلك الحركات، وإنما أضيفت إلى البارى تعالى؛ لأنه خلقها فقط على قولنا، أو لأنه تعالى خلق تلك القوى التى بها كانت تلك الحركات، فسقط إلزامهم الفاسد والحمد لله رب العالمين.

وقالوا أيضًا: إن الأجسام فى طبعها الاستحالة والتغير واحتمال الانقسام أبدًا غاية ليس

شيء منها إلا هكذا أبدًا، فهى محتاجة إلى من يربطها ويشدنا ويحفظها ويكون به تماسكها، قالوا والفاعل لذلك النفس فلو كانت النفس جسمًا لكانت محتاجة إلى من يربطها ويحلها، فيلزم من ذلك أن تحتاج النفس إلى نفس أخرى، والأخرى إلى أخرى والأخرى كذلك إلى ما لا نهاية له، وما لا نهاية له باطل.

وهذا أفسد من كل قول سلف من تغشياتهم؛ لأن مقدمته مغشوشة فاسدة كاذبة. أما قولهم: إن الأجسام فى طبعها الاستحالة والتغير على الإطلاق كذب؛ لأن الفلك جسم لا يقبل الاستحالة، وإنما تجب الاستحالة والتغيير فى الأجسام المركبة من طبائع شتى بخلعها كيفياتها ولباسها كيفيات أخرى، وبانحلالها إلى عناصرها هكذا مدة أيضًا ثم تبقى منحلة لا مستحيلة.

وأما النفس فإنها تقبل الاستحالة والتغيير فى أعراضها فتتغير وتستحيل من علم إلى جهل ومن جهل إلى علم، ومن حرص إلى قناعة، ومن بخل إلى جود، ومن رحمة إلى قسوة، ومن لذة إلى ألم، هذا كله موجود محسوس، وأما أن تستحيل فى ذاتها فتصير ليست نفسًا فلا، وهذا الكوكب هو جسم ولا يصير غير كوكب، والفلك لا يصير غير فلك، وما قوله إن الأجسام محتاجة إلى ما يشدها ويربطها ويمسكها فصحيح، وأما قوله: إن النفس هى الفاعلة لذلك فكذب ودعوى بلا دليل عليها إقناعى ولا برهانى، بل هو تمويه مدلس ليجوز باطله على أهل الغفلة، وهكذا قول الدهرية، وليس كذلك بل النفس من جملة الأجسام المحتاجة إلى ما يمسكها ويشدها ويقيمها وحاجتها إلى ذلك كحاجة سائر الأجسام التى فى العالم ولا فرق، والفاعل لكل ذلك فى النفس وفى سائر الأجسام والممسك لها، والحافظ لجميعها والمحيل لما استحال منها فهو المبتدئ للنفس ولكل ما فى العالم من جسم أو عرض، والمتمم لكل ذلك هو الله الخالق البارئ المصور عز وجل.

فبعضها أمسكها بطبائعها التى خلقها فيها، وصرفها فضبطها لما هى فيه وبعض أمسكها برباطات ظاهرة كالعصب والعروق والجلود لا فاعل لشيء من ذلك دون الله تعالى، وقد قدمنا البراهين على كل ذلك فى صدر كتابنا هذا فأغنى عن ترداده والحمد لله رب العالمين.

وقالوا أيضًا: كل جسم فهو إما ذو نفس، وإما لا ذو نفس جسمًا فهى متنفسة أى ذات نفس وإما لا متنفسة أى لا ذات نفس، فإن كنت لا متنفسة فهذا خطأ؛ لأنه يجب من ذلك أن تكون النفس لا نفسًا؛ وإن كانت متنفسة أى ذات نفس فهى محتاجة إلى نفس وتلك النفس إلى أخرى والأخرى إلى أخرى، وهذا يوجب ما لا نهاية وما لا نهاية له باطل، وهذه مقدمة صحيحة ركبوا عليها نتيجة فاسدة ليست منتجة على المقدمة.

أما قولهم: إن كل جسم فهو إما ذو نفس، وإما لا ذو نفس فصحيح، وأما قولهم إن النفس

إن كانت غير متنفسة وجب من ذلك أن تكون النفس لا نفسًا فشغب فاسد بارد، لا يلزم، لأن معنى القول بأن الجسم ذو نفس إنما هو أن بعض الأجسام أضيف إليه نفس حية حساسة متحركة بإرادة مدبرة لذلك الجسم الذى استضافت إليه.

ومعنى القول بأن هذا الجسم غير ذى نفس إنما هو أنه لم تستضف إليه نفس، فالنفس هى الحية المحركة المدبرة، وهى غير محتاجة إلى جسم مدبر لها، ولا محرك له فلم يجب أن يحتاج إلى نفس ولا أن تكون ليست نفسًا، ولا فرق بينهم فى قولهم هذا وبين من قال: إن الجسم يحتاج إلى جسم، كما قالوا: إنه يجب أن تحتاج النفس إلى نفس أو قال يجب أن يكون الجسم لا جسمًا كما قالوا يجب أن تكون النفس لا نفسا، وهذا كله هوس وجهل والحمد لله رب العالمين.

وقالوا: لو كانت النفس جسمًا لكان الجسم نفسًا، وهذا من الجهل المفرط المظلم، ولو كان لقائل هذا الجنون أقل علم بحدود الكلم لم يأت بهذه الغثاثة؛ لأن الموجبة الكلية لا تنكس البتة انعكاسا مطردا إلا موجبة جزئية ولا كلية، وكلامهم هذا بمنزلة من قال: لما كان الإنسان جسمًا وجب أن يكون الجسم إنسانا، ولما كان الكلب جسمًا وجب أن يكون الجسم كلبًا، وهذا غاية الحمق والقحة، لكن صواب القول فى هذا أن نقول: لما كانت النفس جسمًا كان بعض الأجسام نفسًا، ولما كان الكلب وجب أن يكون بعض الأجسام كلبًا، وهذا هو العكس الصحيح المطرد اطرادا صحيحا أبدًا، وبالله تعالى التوفيق.

وقالوا أيضًا: إن كانت النفس جسما فهى بعض الأجسام، وإذا كانت كذلك فكلية الأجسام أعظم مساحة منها، فيجب أن تكون أشرف منها.

وهذا جنون مردود؛ لأنه ليس بكثرة العدد يجب الفضل والشرف، ولا بعموم اللفظ يجب الشرف، بل قد يكون الأقل والأخص أشرف، ولو كان ما قالوه لوجب أن تكون الأخلاق جملة أشرف من الفضائل خاصة؛ لأن الأخلاق فضائل وشىء آخر فهى أتم فهى على حكمهم السخيف أشرف، وهذا ما لا يقوله ذو عقل، وهم يقرون أن النفس جوهر والجوهر نفس وجسم فالجوهر أشرف من النفس، لأنه نفس وشىء آخر، وقد قالوا: إن الحى يقع تحت النامى فيلزمهم أن النامى أشرف من الحى لأنه حى وشىء آخر، وهذا تخليط وحماقة ونعوذ بالله من الوساوس.

وقالوا أيضًا: كل جسم يتغذى والنفس لا تتغذى فهى غير جسم، إن كان هؤلاء السخفاء إذا اشتغلوا بهذه الحماقات كانوا سكارى، بل سكر الجهل والسخف أعظم من سكر الخمر؛ لأن سكر الخمر سريع الإفاقة، وسكر الجهل والسخف بطىء الإفاقة، أتراهم إذ قالوا كل جسم فهو متغذ ألم يروا الماء وإنما يتغذى من الأجسام النوامى فقط، وهى أجساد الحيوان الساكن فى الماء والأرض والشجر والنبات فقط، فإذا كانت عند هؤلاء النوكى ما لا يتغذى ليس جسمًا فالأرض

والحجارة والكواكب والفلك والملائكة ليس كل ذلك جسمًا، وكفى بهذا جنونًا وخطأ، ونحمد الله على السلامة.

وقالوا: لو كانت النفس جسمًا لكانت لها حرية؛ لأن لكل جسم حركة ونحن لا نرى للنفس حركة فبطل أن تكون جسمًا، وهذه دعوى كاذبة، وقد تناقضوا أيضا فيها؛ لأنهم قد قالوا قبل هذا بنحو ورقة فى بعض حججهم إن الأجسام غير متحركة، والنفس متحركة، وهنا قلبوا الأمر فظهر جهلهم وضعف عقلهم، وأما قولهم لا نرى لها حركة فمخرفة فليس كل ما لا يرى يجب أن ينكر إذ قام على صحته دليل، ويلزمهم إذا أبطلوا حركة النفس؛ لأنهم لا يرونها أن يبطلها النفس جملة لأنهم أيضًا لا يرونها ولا يشمونها، ولا يلمسونها ولا يذوقونها، وحركة النفس معلومة بالبرهان وهو أن الحركة قسمان حركة اضطرار وحركة اختبار، فحركة الاضطرار هى حركة كل جسم غير النفس، هذا ما لا يشك فيه فبقيت حرة الاختيار وهى موجودة يقينا، وليس فى العالم شىء متحرك بها حاشا النفس فقط فصح أن النفس هى المتحركة بها فصح ضرورة أن للنفس حركة اختيارية معلومة بلا شك، فإذن لا شك فى أن كل متحرك فهو جسم وقد صح أن النفس متحركة فالنفس جسم، فهذا هو البرهان الضرورى التام الصحيح، لا تلك الوساوس وإلا هذا ونحمد الله على نعمه عز وجل.

وقالوا: لو كانت النفس جسمًا لوجب أن يكون اتصالها بالجسم إما على سبيل المجاورة وإما على سبيل المداخلة وهى الممازجة، فبعد هذا ماذا؟ ونعم فإن النفس متصلة بالجسم على سبيل المجاورة ولا يجوز سوى ذلك، إذ لا يمكن أن يكون اتصال الجسمين إلا بالمجاورة، وأما اتصال المداخلة فإنما هى بين العرض والعرض والجسم والعرض على ما بينا قبل.

وقالوا أيضًا: إن كانت النفس جسمًا فكيف يعرف الجسم؟ أبمماسة أم بغير مماسة؟ إن الأجسام كلها حاشا النفس موات لا علم لها ولا حس، ولا تعلم شيئًا وإنما العلم والحس للنفس فقط، فهى تعلم الأجسام والأعراض وخالق الأجسام والأعراض الذى هو خالقها أيضًا بما فيها من صفة الفهم وطبيعة التمييز وقوة العلم التى وضعها فيها خالقها عز وجل وسؤالهم بارد.

وقالوا أيضًا: إن كل جسم بدا فى نشوة وغاية ينتهى إليها، وأجود ما يكون الجسم إذا انتهى إلى غايته فإذا أخذ فى النقص ضعف، وليست الأنفس كذلك؛ لأننا نرى أنفس المكتهلين أكثر رضاء، وأنفذ فعلًا، ونجد أبدانهم أضعف من أبدان الأحداث فلو كانت النفس جسمًا لنقص فعلها بنقصان البدن، فإذا كان هذا كما ذكرنا فليست النفس جسمًا.

وهذه مقدمة فاسدة الترتيب، أما قولهم: إن الجسم أجود ما يكون إذا انتهى إلى غايته فخطأ، إذا قيل على العموم، وإنما ذلك فى النوامى فقط وفى الأشياء التى تستحيل استحالة ذبولية فقط، كالشجر وأصناف أجساد الحيوان والنبات.

وأما الجبال والحجارة والأرض والبحار والهواء والماء والأفلاك والكواكب فليس لها غاية إذا بلغتها أخذت فى الانحطاط، وإنما يستحيل بعض ما يستحيل من ذلك على سبيل التفتت، كحجر كسرته فانكسر ولو ترك لبقى، ولم يذبل ذبول الشجر والنبات وأجسام الحيوان، وكذلك النفس لا تستحيل استحالة ذبول ولا استحالة تفتت وإنما تستحيل أعراضها كما ذكرنا فقط، ولا نماء لها، وكذلك الملائكة والفلك والكواكب والعناصر الأربعة لا نماء لها، وكل ذلك باق على هيئته التى خلقه الله تعالى عليها إذ خلق كل ذلك، والنفس كذلك منتقلة من عالم الابتداء إلى عالم الابتلاء إلى البرزخ، إلى عالم الحساب، إلى عالم الجزاء فتخلد فيه أبدًا بلا نهاية، وهى إذا تخلصت من رطوبات الجسد وكدره كانت أصفى نظرًا وحسًا وأصح علما كما كانت قبل حلولها فى الجسد، نسأل الله خير ذلك المنقلب منه. آمين.

وهذا كل ما موهوا به من كل نطيحة ومتردية، قد تقصيناه لهم وبينا أنه كله فساد وحماقات، ونقضناه بالبراهين الضرورية والحمد لله رب العالمين.

فإذ قد بطل كل ما شغب به من يقول إن النفس ليست جسما، وسقط هذا القول: لتعريه عن الأدلة جملة، فنحن إن شاء الله عز وجل نوضح بعون الله عز وجل وقوته البراهين الضرورية على أنها جسم، وبالله تعالى نتأيد.

وذلك بعد أن نبين بتأييد الله عز وجل شعبتين يمكن أن يعترض بهما إن قال قائل: أتنمو النفس..؟ فإن قلتم: لا، قلنا لكم: نحن نجدها تنشأ من صغر إلى كبر، وترتبط بالجسد بالغذاء، وإذا انقطع الغذاء انحلت عن الجسد، ونجدها تسوء أخلاقها ويقل صبرها، بعدم الغذاء فإذا تغذت اعتدلت أخلاقها وصلحت.

والنفس لا تتغذى ولا تنمو، أما عدم غذائها فالبرهان القائم بأنها ليست مركبة من الطبائع الأربع، وأنها بخلاف الجسد، هذا هو البرهان على أنها لا تتغذى وهو أن ما تركب من العناصر الأربعة فلا بد له من الغذاء ليستخلف ذلك الجسد، أو تلك الشجرة أو ذلك النبات من رطوبات ذلك الغذاء أو أرضياته، مثلما تحلل من رطوباته بالهواء والحر وليست هذه صفة النفس إذ لو كانت لها هذه الصفة لكانت من الجسد أو مثله، ولو كانت من الجسد أو مثله لكانت مواتًا كالجسد غير حساسة، فإذا قد بطل أن تكون مركبة من طبائع العناصر بطل، تكون متغذية نامية، وأما ارتباطها بالجسد من أجل الغذاء فهو أمر لا يعرف كيفيته إلا خالقها عز وجل الذى هو

مدبرها، إلا أنه معلوم أنه كذلك فقط، وهو كطحن المعدة للغذاء لا يدرى كيف هو وغير ذلك مما يوجده الله تعالى ويعلمه.

ومن البرهان على أن النفس لا تتغذى ولا تنمو: أن البرهان قد قام على أنها كانت قبل تركيب الجسد على آباد الدهور، وأنها باقية بعد انحلاله، وليس هنالك فى ذينك العالمين غذاء يولد نماء أصلًا، وأما ما ظنوه من نشأتها من صغر إلى كبر فخطأ، وإنما هو عودة من النفس إلى ذكرها الذى سقط عنها بأول ارتباطها بالجسد، فإن سأل سائل أتموت النفس؟ قلنا نعم؛ لأن الله تعالى نص على ذلك فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

وهذا الموت إنما هو فراقها للجسد فقط، برهان ذلك قول الله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ (الأنعام: ٩٣). وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ (البقرة: ٢٨).

ولنذكر الآن إن شاء الله تعالى البراهين الضرورية على أن النفس جسم من الأجسام، فمن الدليل على أن النفس جسم من الأجسام على الأشخاص، فنفس زيد غير نفس عمرو، فلو كانت النفس واحدة لا تنقسم على ما يزعم الجاهلون القائلون أنها جوهر لا جسم لوجب ضرورة أن يكون نفس المحب هو نفس المبغض، وهى نفس المحبوب، وأن يكون نفس الفاسق الجاهل هى نفس الفاضل الحكيم العالم، ولكانت نفس الخائف هى نفس المخوف منه، ونفس القاتل هى نفس المقتول، وهذا حمق لا خفاء به.

فصح أنها نفوس كثيرة متغايرة الأماكن مختلفة الصفات، حاملة لأعراض أفصح أنها جسم بيقين لا شك فيه أنه من صفات النفس وخواصها لا مدخل للجسد فيه أصلًا ولا حظ للنفس، فلو كانت النفس جوهرًا لا يتجزأ نفوسًا لوجب ضرورة أن يكون علم كل أحد مستويًا لا تفاضل فيه؛ لأن النفس على قولهم واحدة عندهم غير منقسمة ولا متجزئة، فكان يلزم ولا بد أن يعلم جميع أهل الأرض ما يعلمه كل عالم فى الدنيا لأن نفسهم واحدة لا تنقسم وهى العالمة، وهذا ما لا انفكاك منه البتة فقد صح بما ذكرنا ضرورة أن نفس كل أحد غير نفس غيره، وأن أنفس الناس أشخاص متغايرة تحته نوع نفس الإنسان، وأن نفس الإنسان الكلية نوع تحت جنس النفس الكلية، التى يقع تحتها أنفس جميع الحيوان.

وإذ هى أشخاص متغايرة ذات أمكنة متغايرة حاملة لصفات متغايرة فهى أجسام، لا يمكن غير ذلك البتة، وبالله تعالى التوفيق.

وأيضًا: فإن العالم كله محدود معروف أجسام وأعراض ولا مزيد، فمن ادعى أن هاهنا

جوهرًا ليس جسمًا ولا عرضًا فقد ادعى ما لا دليل عليه البتة، ولا يتشكل فى العقل ولا يمكن توهمه، وما كان هكذا فهو باطل مقطوع على بطلانه. وبالله تعالى التوفيق.

وأيضًا: فإن النفس لا تخلو من أن تكون خارج الفلك أو داخل الفلك، فإن كانت خارج الفلك فهذا باطل إذ قام البرهان على تناهى جرم العالم، وإذا تناهى جرم العالم فليس وراء النهاية شىء، ولو كان وراءها شىء لم تكن نهاية، فوجب ضرورة أنه ليس خارج الفلك الذى هو نهاية العالم شىء لا خلاء ولا ملاء، وإن كانت فى الفلك فهى ضرورة إما ذات مكان وإما محمولة فى ذى مكان، لأنه ليس فى العالم شىء غير هذين أصلًا.

ومن ادعى أن للعالم شيئًا ثالثًا فقد ادعى المحال والباطل، وما لا دليل له عليه، وهذا لا يعجز عنه أحد، وما كان هكذا فهو باطل بيقين، وقد قام الدليل على أن النفس ليست عرضًا؛ لأنها عالمة حساسة، والعرض ليس عالمًا فصح أنها حاملة لصفاتها لا محمولة فإذ هى حاملة متمكنة فهى جسم لا شك فيه، إذ ليس إلا جسم حامل أو عرض محمول، وقد بطل أن تكون عرضًا محمولا فهى جسم تحت جنسٍ حامل، وبالله تعالى التوفيق.

وأيضًا: فلا تخلو النفس من أن تكون واقعة تحت جنس، أو لا واقعة تحت جنس فإن كانت لا واقعة تحت جنس فهى خارجة عن المقولات، وليس فى العالم شىء خارج عنها، ولا فى الوجود شىء خارج عنها إلا خالقها وحده لا شريك له، وهم لا يقولون بهذا بل يوقعونها تحت جنس الجوهر الجامع للنفس وغيره فنقول: أله طبيعة أم لا؟ فإن قالوا: لا وجب أن كل ما تحت الجوهر لا طبيعة له، وهذا باطل وهم لا يقولون هذا، فإن قالوا: لا ندرى ما الطبيعة؟ قلنا لهم: أله صفة محمولة فيه لا يوجد دونها أم لا؟ فلا بد من نعم، وهذا هو معنى الطبيعة، وإن قالوا بل له طبيعة، وجب ضرورة أن يعطى كل ما تحته طبيعة؛ لأن الأعلى يعطى كل ما تحته اسمه وحدوده عطاء صحيحًا، والنفس تحت الجوهر فالنفس ذات طبيعة بلا شك، وإذ صح أن لها طبيعة فكل ما له طبيعة فقد حصرته طبيعته، وما حصرته الطبيعة فهو ذو نهاية محدودة، وكل ذى نهاية فهو إما حامل وإما محمول، والنفس بلا شك حاملة لأعراضها من الأضداد، كالعلم، والجهل، والذكاء والبلادة والنجدة، والجبن، والعدل، والجود، والقسوة، والرحمة، وغير ذلك، وكل حامل ذو مكان، وكل ذى مكان جسم، فالنفس جسم ضرورة.

وأيضًا ما كان واقعًا تحت جنس فهو نوع من أنواعه ذلك الجنس، وكل نوع فهو مركب من جنسه الأعلى العالم له عن أنواعه، ومركب أيضًا مع ذلك من فصله الخاص له، المميز له من سائر الأنواع الواقعة معه تحت جنس واحد، فإنه موضوع وهو جنسه القابل لصورته وصورة غيره وله

محمول وهو صورته التى خصته دون غيره فهو ذو موضوع ومحمول، فهو مركب والنفس نوع للجوهر فهى مركبة من موضوع ومحمول وهى قائمة بنفسها فهى جسم ولا بد.

وهذه براهين ضرورية حسية عقلية لا محيد عنها، وبالله تعالى التوفيق.

وهذا قول جماعة من الأوائل، ولم يقل أرسطاطاليس: إن النفس ليست جسمًا على ما ظنه أهل الجهل، وإنما نفى أن تكون جسمًا كدرًا وهو الذى لا يليق بكل ذى علم سواء، ثم لو صح أنه قالها لكانت وهلة ودعوى بلا برهان عليها، وخطأ لا يجب اتباعه عليه، وهو يقول فى مواضع من كتبه اختلف أفلاطون والحق وكلاهما إلينا حبيب غير أن الحق أحب إلينا، وإذا جاز أن يختلف أفلاطون والحق فغير نكير ولا بد أن يختلف أرسطاطاليس والحق، وما عصم إنسان من الخطأ فكيف وما صح قط أنه قاله..؟ وإنما قال: إن النفس جوهر لا جسم من ذهب، إلا أنها هى الخالقة لما دون الله تعالى على ما ذهب إليه بعض الصابئين، ومن كنى بها عن الله تعالى.

وكلا القولين سخيف وباطل؛ لأن النفس والعقل لفظتان من لغة العرب موضوعتان فيها لمعنيين مختلفين، فإحالتهما عن موضوعهما فى اللغة سفسطة وجهل، وقلة حياء وتلبيس وتدليس.

وأما من ذهب إلى أن النفس ليست جسما مما ينتمى إلى الإسلام بزعمه فقول يبطل بالقرآن والسنة وإجماع الأمة، فأما القرآن فإن الله عز وجل قال: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ (يونس: ٣٠) وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ (غافر: ١٧) وقال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور: ٢١).،

فصح أن النفس الفعالة الكاسبة المجزية المخاطبة وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسف: ٥٣).

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٦) وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ (البقرة: ١٥٤)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

فصح أن النفس منها ما يعرض على النار قبل يوم القيامة فتعذب، ومنها ما يرزق وينعم فرحًا ويكون مسرورًا قبل يوم القيامة، ولا شك أن أجساد آل فرعون وأجساد المقتولين فى سبيل الله قد تقطعت أوصالها، وأكلتها السباع والطيور وحيوان الماء.

فصح أن النفس منقولة من مكان إلى مكان، ولا شك فى أن العرض لا يلقى العذاب ولا

يحس فليست عرضا، وصح أنها تشغل الأماكن قائمة بنفسها وهذه صفة الجسم لا صفة الجوهر عند القائلين به، فصح ضرورة أنها جسم.

وأما من السنن فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر فى الجنة))، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((إنه رأى نسم بنى آدم عند سماء الدنيا عن يمين آدم ويساره)).

فصح أن الأنفس مرئية فى أماكنها، وقوله عليه السلام: إن نفس المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى سماء الدنيا، وفعل بها كذا، ونفس الكافر إذا قبضت فعل بها كذا، فصح أنها معذبة ومنعمة ومنقولة فى الأماكن، وهذه صفة الأجسام ضرورة، وأما من الإجماع فلا خلاف بين أحد من أهل الإسلام فى أن أنفس العباد منقولة بعد خروجها عن الأجسام إلى نعيم أو إلى ضيق وتعذيب، وهذه صفة الأجسام، ومن خالف هذا، فزعم أن الأنفس تعدم أو أنها تنتقل إلى أجسام أخرى فهو كافر مشرك حلال الدم والمال، لخرقه الإجماع ومخالفته القرآن والسنن ونعوذ بالله من الخذلان.

وقد ذكرنا فى باب عذاب القبر أن الروح والنفس شىء واحد، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (الإسراء: ٨٥) إنما هو لأن الجسد مخلوق من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم عظمًا ثم لحمًا، ثم أمشاجًا، وليس الروح كذلك، وإنما قال الله تعالى: آمرا له بالكون ((كن)) فكان، فصح أن النفس والروح والنسمة أسماء مترادفة لمعنى واحد. وقد تقع الروح أيضًا على غير هذا، فجبريل عليه السلام الروح الأمين، والقرآن روح من عند الله، وبالله تعالى التوفيق.

* * *